الـهديـة السـارة بـالمسـامـرة
ببيـان بـعض الفنـون النـافـعة والفنـون الضـارة

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

الهدية السارة بالمسامرة ببيان بعض الفنون النافعة والفنون الضارة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، حمدا لمن علم الإنسان ما لم يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما، والصلاة والسلام على نبي الرحمة المخاطب بقول الله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم[2]، وأمره بالإستزادة من العلم بقوله جل علاه: وقل رب زدني علما[3]، فنال مقاما جسيما، وكان بالمومنين رحيما، وعلى آله وأصحابه نجوم الإهتداء، وأئمة الاقتداء.

أما بعد، أيها السَّادة الأفاضل، قد اقترح عليّ سيادة مندوب المعارف العلامة المبرز في العلم والفضل سيدي محمد بن الحسن الحجوي[4] أن ألقي في هذه المدرسة العليا مسامرة في موضوع مفيد، وأسلوب منشط للمستفيد، ولم أجد مندوحة عن امتثال أمره لما له حفظه الله من الحرص على بث المعارف وإحياء دروس العلم وتنوير الأفكار، فجلتُ جولة في بيداء التفكر في موضوعات مختلفة، عسى أن أجد سبيلا أسلك منه إلى مَا يستحسنه ذوو الأذواق السليمة، فاهتديت لأطرق بابا طالما طرأ عليّ الدخول منه إلى ميدانه الفسيح، فأتنزّه في روضات جناته المثمرة أفنانها بفنون المعارف العالية الغالية، وأقتطف ما ازدهى وازدهر فيها من القطوف الدانية، وذلك ما أترجم عنه باسم هذا الرقيم: **الهدية السارة، بالمسامرة ببيان بعض الفنون النافعة والفنون الضارة**، بعد أن كنت نظمت قصيدتي اللامية المعنونة بنفع العموم، بالمسامرة ببعض العلوم[5]، التي مطلعها:

---

[1]- هي مسامرة علمية هامة، ألقاها المؤلف على أسماع طلبة المدرسة العليا بمدينة الرباط، وذلك باقتراح من منذوب المعارف العلامة الشهير محمد بن الحسن الحجوي.

[2]- سورة العلق، الآية 4.

[3]- سورة طه، الآية 114.

[4]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.

[5]- كان للعلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله مشاركات مكثفة في المسامرات التي كانت تعقدها عدة نوادي علمية أدبية في مختلف مدن المغرب، تلك المسامرات التي كان تعقد بمحضر نخبة من جلة علماء وأدباء الوطن، ويظهر كل منهم حاد نظره وذهنه في البحث والتنقيب في أي مسألة من المسائل العلمية أو الأدبية أو الفكرية أو التاريخية.

وعموما فقد كانت للعلامة المذكور في هذه المسامرات صولات وجولات مشهودة، وكان من أكثر روادها معرفة وتفتحا وسعة أفق، اعتبارا لما عرف عنه من ذكاء وسرعة بديهة، ولما كان يسلكه من أحدث أساليب التحليل الأدبي وتذوق النصوص والإلمام بمختلف التيارات العلمية.

خذ العلوم وإن كسلت عن عمل	فالعلم من أكمل الأوصاف في الرجل
لا يستوي عالم وجاهــــل أبــدا	وَلو بلا عمل أحـــــرى مع العمـــل[1]

وحيث كانت العلوم متنوعة في حد ذاتها واختلاف موضوعاتها، ولكل منها اصطلاح خاص به مما هو متداول وغير متداوَل بين العموم والخصوص، كنت أقضي العجب كما يقضيه غيري من كثرة العدد الذي يذكره بعض العارفين من أنواع العلوم، ولقد وقفت على أسماء كثيرة منها في الفتوحات المكية، وقد ألّف الإمام الشعراني تأليفا في ذكر جملة من ذلك سماه: تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء، ذكر فيه نحو واحد وسبعين ألف علم، وَبحثت عليه كثيرا فلم أعثر عليه، حتى وقفت على تأليفه المسمّى: إرشاد الطالبين، إلى مراتب العلماء العاملين، الذي ذكر فيه أربعمائة علم وأحد عشر علما باسم كل واحد منها ليتميز عن غيره، فوجدته قد أشار إلى تأليفه المذكور هناك وأنه لما رأى عقول العلماء تحار فيه رمى به في بحر النيل، وذكر في كتابه المسمّى: الدر النظيم، في علوم القرآن العظيم نحو ثلاثة آلاف علم منها، ونقل عن شيخه العارف بالله سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه أنه أخبره بأنه خرَّج من سورة الفاتحة من العلوم مائتا ألف علم وسبعة وأربعين ألف علم وتسعمائة وتسعة وتسعين علما، وهكذا نقل غيره عن جماعة من العارفين، ولا يظن الظان أن هذه العلوم مجرد أسماء أو أسماء لا مسمى لها، بل كل علم منها له اصطلاح خاص في موضوع خاص، مع بقية المبادئ المنوطة به، مع اتساع مجاله في كلياته المندرج تحتها جزئيات كثيرة.

وهذه العلوم تنبئ باتساع عارضة الخائضين فيها من العارفين الذين تكلموا في كل واحد منها حسب اصطلاحه كما هي عليه العلوم المقرر اصطلاحها مما يتضح به جهل المتكلم فيها من غير مراعاته، ويعرف الدخيل فيه من غيره بمجرد كلامه على حسب مقاله ومقامه، ولا ينبغي إنكار مَن لا إلمام له بواحد منها على من تكلم بمراعاة ذلك الإصطلاح فيه عند المنصف، وليست هذه العلوم بمتناولة لكل واحد، لأنها لا تخطر ببال غير أهلها، و لا يظفر شيء منها غير المولوع بالبحث عنها، والقطف من أغصانها اليانعة في بستانها، مع وجود قابلية فيه لحمل مَا قرره أهلها بعباراتهم التي لا تفهم لكل العموم، كالمتكلم مثلا في حدود إشكال القضايا المنطقية عند من لا يعرف الكليات الخمس، فلا جرم أن جاهل ذلك يَصعب عليه الوصول للنتائج على وفق الإصطلاح، إن لم يبادر بالإنكار بالمرة، بكونه لا يمكن لأحدٍ الحصول على هذا الفن الذي هو مجرد قواعد يتوصل بها لعصمة الفكر من غير الخطأ، وهكذا غيره من الفنون.

ولما كانت هذه العلوم غير متناولة لكل أحد، وجهت النظر إلى معرفة أسماء بعض أنواع العلوم التي يخوض فيها النَّاس بين العموم، فوجدتها كثيرة أيضا، ما بين محمود منها ومذموم في نظر الشرع تعلما وتعليما وعلما وعملا، وقد انقسمت بأنواعها المختلفة إلى علوم متداولة وغير متداولة أيضا نظير العلوم المتقدمة.

[1] - أنظر نص هذه القصيدة ضمن هذا الجزء ص

فسنح لي أن أذكر في هذه المسامرة جملة من ذلك، لتنفتح أفكار المطلعين عليها ممن لم يقفوا عليها من قبل، فيكون لهم بعض الإلمام ولو بإجراء أسمائها على حافظتهم[1]، وعسى أن يهب نسيم الولوع بإحياء الفنون على لواقح القرائح، فتثمر قابلية لتحصيل المحمود منها والعمل به، مع حصول نهضة في العلم بهمة عالية آخذة باليد من مزلق التكاسل والتقاعد عن إدراك ما أدركه غيرنا من أسرار العلوم وثمرات المعارف، التي انجلت بها عنهم غياهب جب الجهالات التي تراكم بعضها على بعض في قطرنا من حيث لا ندري، وندعي أننا ندري ولا نرضى أن نقول لا ندري وحقنا أن نتعلم ونرشد إلى التعلم في هذا العصر الذي لم يتقدم فيه الجهل على العلم عند العارفين بقدره، ولا يزال المتقاعد بجهله وإن تقدَّم بنفسه متأخرا متقهقرا إلى ورا، كما عليه حالة أهل زماننا[2]، حتى أننا حفظنا عن بعض شيوخنا قبل هذا الوقت قول القائل:

زماننـــا كأهلــه وأهله كمـا تـرى
ومشيهم جميعهم إلى ورا إلى وَرا

أمَّا الآن فقد لاحت لنا بارقة خير تحت ظل الجلالة اليوسفية أدام الله سعادتها، فشيّدت في إيالته السعيدة عدة مدارس لدرس بعض العلوم المهمّة التي يحق علينا أن نتسارع بكبيرنا وصغيرنا إلى تحصيلها.

وها هنا نظرة إجمالية في العلوم وأنواعها والسبب في إحيائها وإماتتها، لا غرض لنا في الكلام على تعريف العلم بذكر الحدود والرسوم المميز بها كل نوع من أنواعه، وذكر الجامع والمانع في الطرد والعكس، وما يرد على ذلك من الإيرادات والأجوبة، وإنما نذكر هنا مَا تأتى لنا ذكره من أنواعه بعبارة وَاضحة المعنى، وإن لم تكن جامعة مانعة في نوع العلم الذي نذكره، لكون ذلك يستدعي إلى طول، وليس المقام هنا بمقام درسها، وإنما هو مقام إمْلاء تحريكا للقائح للانكباب على تحصيل العلم بتعلمه في دروسه الخاصة، وإن كان جل هذه

[1]- سعى العلامة سكيرج رحمه الله طول حياته لانتشال المسلمين من سقطتهم، ونشر العلوم النافعة بين أبنائهم، فكان في هذا الصدد المثل الحي لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الإسلامية، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص، واستتارة خباياها، وإبراز مفاخرها، وكانت تتحلق حوله في معظم مسامراته طبقة من كبار المثقفين المغاربة وقتئذ، وكان العلامة سكيرج أوسعهم علما، وأعمقهم غورا، وأبعدهم نظرا، يسعى إلى غاية هي أكبر أمانيهم ومبلغ طموحهم، فقدموه معترفين بفضله، وعقدوه مقرين آراءه ونظراته، وكان من أولئك العلماء الوزير محمد بن الحسن الحجوي، ومحمد بن علي دينية، وعبد الحي الكتاني، ومحمد بن العربي العلوي وآخرين.

[2]- كان العلامة سكيرج رحمه الله يرمي من وراء هذه المسامرة إلى أهداف عديدة، لعل من أبرزها الدعوة إلى نشر العلم، والإهابة بالعقول أن تستيقظ وتتجه نحو الكمال الممكن في هذه الحياة، ومحاربة الجهل والخرافات المستحكمة، والتنافس الدنيء، وما إلى ذلك من الروابط الممزقة والأسر المفككة، والطمع الرخيص، والكبر والحسد والشحناء، وغيرها من الأوضاع التي لا تتفق والإسلام.
وكان رحمه الله من عداد العلماء الذين تصدوا لإصلاح هذا الوضع، حيث بذل جهدًا كبيرا في تغييره، وما من وسيلة رآها ناجعة إلا جعلها وصلة إلى هدفه، وسلَّمًا إلى غايته، وبالرغم مما كان يعترض طريقه من مشاغبات ومنغصات ومثبطات، شأن كل عالم مصلح يواجه الناس بإنكار ما شبوا عليه وشابوا من بدع وأباطيل، فإنه ظل كالدوحة المنتصبة في الفضاء، تهز بالأعاصير والأنواء ساخرة متحدية.

العلوم قد اندرس بفقد العارفين بها، إلا فيما قلَّ منها، ولم يبق بين يدينا إلا الإسم منها، على أن جل أنواع العلم لا يُعرَف اسمُه فضلا عن معرفة قضاياه إلا النَّادر من النَّاس، لبرودة القرائح وقصور الهمم وعدم الاعتناء بأهْل العلم، فإنَّ العلم بل كل نوع من العلم لا يَظهر أمره إلا بالاعتناء بأهْله وإعطاء ممارسيه ما استحقوه بقدر مزيتهم في الترقي فيه بين أبناء جنسهم، واعتبار الحكومة لهم، فالقاضي بإحياء كل نوع من العلوم وإماتته في كل عصر هم الولاة من ذوي الحل والعقد، ولم تتفوق دولة من الدول على غيرها إلا بتخصيص ذوي العلم فيها بما لم يكن للجهَّال من الإعتناء بهم والاعتبار النَّاهض بهم من مقعد التأخّر إلى أمَام التقدم، فلا ترى مؤلفا منهم أو مخترعا أو مكتشفا لما لم يقف عليه غيره ونحو ذلك إلا وله حق خصوصي بالإمتياز على غيره، مع اختصاصه من دولته بإجازة مُنَشِّطَةٍ له ولغيره ليقفو أثره في ذلك، فعمرت أسواق العلوم والمعارف لديهم، وراجت بينهم بضائع المعلومات، وعلا كعب العلم وانتصرت دولته على الجهل، وقد اهتم ذوو الخبرة من كل دولة بجبر الكسر الواقع بالجهل الذي أضرَّ بهم، فشيَّدوا المدارس، واقتبسوا من علوم الدول التي نبغ فيها العلماء والحكماء، حيث تحققوا بأنه لا ارتقاء إلا بالعلم، وأمدَّتهم مالية الحكومة بقدر إمكانها، وساعدتهم أغنياؤها بما سمحت به أنفسهم في سبيل إحياء الأمة، وتنافس الفقراء في التعلم والتعليم بأنفسهم، وإدخال أبنائهم لتلك المدارس مع أبناء الأغنياء، فازدهى عصرهم بهم، وظهرت مزيتهم على غيرهم، حتى كاد أن يستولي على الجهل البسيط الإنعدام في الأمم المتمدنة، فلا تجد عشرة في المائة لا علم عندهم، ولا واحد في المائة لا يعرف الكتابة والقراءة، معَ تخصيصه ببعض المعلومات بما لا يُعَدُّ بهِ من ذوي البطالة العالة على الناس، ونحن في مغربنا قعد بنا الجهل في مقعد دس الأقدام، لم نلتفت لما أوقعه الجهل بنا من المصائب التي نستحق بها الملام، ولم نزل في غفلتنا متقاعدين عن التعلم والتعليم، وليس بيننا واحد في المائة من عدد أبناء قطرنا الذي يناهز 8 ملايين ممن يطلق عليْه عَالِمٌ بين العالم المتمدن إلا انتحالا وتشبعا بما ليس فيه.

أوَ لَيْسَ من المتعين على كل واحد منا أن يقوم على ساق الجد في طلب العلم، فيجتهد الغني والفقير بقلب وقالب ويأخذ هذا بيد هذا، كل بما قدر عليْه[1]، ولا بأس بذكر قصيدتين كنت خاطبت بهما الفقراء والأغنياء، فكتبت إلى الفقراء:

[1]- كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله شجاعا لا يخاف إلا الله ولا يخشى فيه لومة لائم، فإذا آمن بفكرة صدع بها غير متردد وَلا مكتَرث بمن خالفه أو وافقه، ومن هنا كان يحارب الطبقية والتقاليد البالية العفنة، يدعو الأغنياء لتكريس جهودهم لإغاثة الفقراء والمساكين، وليهبوا لأعمال الخير والبر، وتوفير المشاريع الخيرية المخصصة لفائدة المستضعفين والمحرومين وغيرهم.
كما كان يدعو الفقراء إلى التحلي بالصبر وطلب العلم، والمثابرة في تحصيله ومضاعفة المجهودات كي يجني المرء منه فيما بعد الفوائد الجمة.
وكان رحمه الله كثير المحاربة لليأس، يمقته ويجسم عواقبه الوخيمة، ويرى أن لا خطر على الفرد ولا على الأمة منه، فكان يدعو إلى الأمل والتفاؤل، والنظر إلى المستقبل نظرة باسمة، تنشر الأنس، وتبسط المشاعر، وتبعث على العمل والتعلق بالحياة، وكثيرا ما كان ينشد قول الشاعر:
أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

إلــى الفقراء أوجه نصحي ومن قبل النصح فاز بنجح
عـليكم بتعليم أبنائكم فتعليمهم جالب كل منح
وزيدوا اعتناء بتحريضهم على حفظ كل الدروس بكدح
ومن لم يكن عنده رأس مال ومال إلى العلم فاز بربح
فأهل العلوم علوا في العموم لأعلى المعالي وأرفع صرح
هم سادة الناس شرقا وغربا وإن يستجرهم سواهم لسرح
هم المستحقون للمدح حقا وغيرهم ما استحق لمدح
فإن المراتب تدعوهم وذو الجهل فيها جدير التنحي

وكتبت إلى الأغنياء:

من الأغنيا أستنهض العزم والهممْ ليقتطفوا العلم الذي شرف الأممْ
فهذا زمان العلم فيه تقدمت ذووه وفيه الجهل مضطرب القدم
وعار على من فيه أهلية له وعن نيل حظ منه لم يحظ بالقِسَم
فمدوا إليه ساعد الجد بالجدى ليدرك بعض الفضل منه أخو الكرم
خذوا بالأيادي أيدي الفقراء في سلوك طريق العلم تستكملوا النعم
فإن فاتكم أخذ العلوم وبثها فما فاتكم إن تحملوهم على الذمم
فلا خير في مال إذا لم يكن بما لكم عول أهل العلم في السهل والعلم
فكونوا لهم أعوان خير لنيله بما خصكم مولاكم في الورى وعم
ولا تدعوا أبناءكم في جهالة فتركهم في الجهل ظلم به ظلم
وإن أنتم علمتموهم ظفرتموا بعزّ به ترقون في الحل والحرم
فقوموا على ساق اعتناء بما به تنالون من أقصى المرام الذي أهم
وقولوا لهم جدوا بجد وجاهدوا نفوسكم في نيله واحذروا السأم
ألا علموهم فالتعلم منهج يؤدي إلى كشف الهموم مع الغمم
ألا علموهم يزدهي عصركم بهم وتبتهج الدنيا بهم في ذوي الهمم
ألا علموهم إن تريدوا سعادة تدوم وهل للجاهلين سوى النَّدم
ألا علموهم تطمئن صدوركم عليهم ومن تجهل بنوه فقد ظلم
ألا علموهم واعلموا أن جهلكم وجهلهم يفضي إلى العدم والعدم
ألا فانظروا أهل العلوم ومالهم تأتى من الخبرات من سائر الأمم
ألا وانظروا ما حل بالجاهلين من رزايا وما لاقوه من ألَمٍ ألَمّ
فبالعلم تنوير الصدور فلم تقف بكل صدور أو ورود مع الظلم
وبالعلم تدبير الأمور لأهلها محكمة الأحكام في الحكم والحكم
وبالعلم تسخير البحور فسيرت بها سفن لم تخش موجا لها اصطدم
وبالعلم طار الطائرون إلى العلى من الإنس حتى زاحموا النسر و الرخم
وبالعلم تكثير الأجور حقيقة بدنيا وَأَحْرَى أجر أخرى لدى الحكَم
عليكم به فاستمسكوا بحباله وشدوا بها أبناءكم تشكروا النعم
فمن شكر النعماء دامت له ومن بكفرانها يبلى تحل به النقم
ألا واقبلوا نصحي فإني بالاعتنا من الأغنيا أستنهض العزم والهمم

وإذ تمهد هذا وتشوفت النفس إلى الخوض في موضوع المسامرة، فنصرف العنان إلى ذلك من غير تطويل ولا ترتيب في تعداد هذه الفنون، وإنما أذكر ذلك بحسب ما تأتى لي ذكره وإن كان بعضها مندرجا تحت البعض، فإني أعتبره علما مستقلا بذكر اسمه فنقول:

من الأمر الأكيد أن يعتني الشخص بحفظ علوم اللغة العربية وأهم الفنون المنوطة بها، ثمّ حفظ أصول الدين وبعض الفنون المنوطة به، ثم حفظ فقه الدين وبعض الفنون المنوطة به، ثم معرفة الفنون الصناعية بالعمل الفعلي لا بتحصيل الفن فقط، وما زاد على ذلك فهو زيادة في الفضل، فإن العلم من حيث هو علم أفضل من الجهل، وهو فضيلة لا تنكر ولا تذم، فالعلم بكل شيء أولى من جهله، ولذلك يقال تعلم الأشياء خير من جهلها ولو كانت حرامًا، وقد قيل:

العلم زين كله لا نفاد له   نعم القرين إذا ما عاقلا صحبا

والتضلع في العلم والتبحر فيه لا يمكن للشخص إلا في بعض أنواع العلوم المرتبط بعضها ببعض، كما لا يمكن البراعة للشخص في كل الصنائع، لأنه من المقرر عند الأعلام أن الملكة إذا تقدمت في صناعة قل أن يجد صاحبها ملكة في صناعة أخرى إلا إذا لم تستحكم الملكة الأولى، ولذلك كان الأهم تقديم المهم في التعلم والتعليم من علم التوحيد ونحوه، حتى لا يزيغ الإعتقاد عن النهج القويم من الدين.

ثم إن أنواع العلوم مع كثرتها لا تخرج عن علوم أديان وعلوم أبدان وعلوم لسان وعلوم بنان وعلوم جنان وعلوم أذهان وعلوم أكوان، وإن كان بعض هذه العلوم أيضا لها نوع ارتباط فيما بينها، فقلما تجد علما لا تعلق له بعلم آخر، بما له من التناسب الذي يجد به المتفنن سبيلا واسعا في استطراد علوم متعددة عند تكلمه في أحد العلوم، لكن لا يمكنه أن يكون له التضلع التَّام فيها كلها وفق ما أشرنا إليه، وإنما تكون له الملكة في بعضها، وأعظمها ملكةً فيه ما خاض فيه أولا وانطبع في مرآة تفكراته الخيالية، فيصعب عليه أن يرتسم في مخيلته فنون متعددة في ميزان الإستواء بالمهارة التامَّة في جميعها[1].

---

[1]- اهتم العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله بالتربية والتعليم اهتماما كبيرًا، استبدَّ بمشاعره وأحاسيسه، وصار شغله الشاغل في مجالات حياته، وكان كثير الإستشهاد بقوله تعالى: قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وبقوله تعالى: يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين آتوا العلم درجات. وبقوله تعالى: وقل ربي زدني علما.
وخلاصة القول فقد كان في جميع أطواره يتحدث عن التعليم، ويرى أنه من أهم أسباب النهضة إذا قام به الأكفاء علما وخبرة وتجربة. وينتقد طريقة التعليم التي تقوم على حشو الأدمغة بالقواعد والحواشي والنصوص والشروح الطويلة، وتحميل التلامذة ما لا تطيق عقولهم، ويرى أن مراعاة مستوى الطلبة وعيًا وإدراكًا أمر ضروري أكيد.
وعموما فهو يحض على طلب العلم، ويرى أن نشره واجب حتى على رجال الطب والهندسة، كل على حسب طاقته ووقته، ولا يقبل أي عذر في ذلك، لأن الأمة في حاجة إلى أهل العلم والمعرفة في مختلف التخصصات، من صناعة وتجارة وعمران وقضاء وإفتاء.

وإن كان ولا بدّ في بعض الأفراد التضلع من أنواع العلم في ظاهر الأمر فهو يقضي على نفسه في الباطن برجحان كفة العلم الذي مارسه أولا وتمكن منه، فلا يمكنه الإنتقال عنه إلا بوازع قهري يستولي عليه بداعية طارئة تحمله على استحكام طبع آخر في قابليته، ولذلك يعسر الإنتقال من مذهب إلى مذهب بعد التمكن في الأول، كما يصعب الإنتقال عن المألوفات من غير تدريج من طبع من تمكنت فيه.

فاتضح من هذا كله أن المتفنن في جملة من الفنون لا يبلغ فيه مبلغ المتضلع في الفن الواحد منها إلا في النادر، الذي يعدّ من قبيل خرق العادة فيه بالمشاركة التي تيسرت له بما فاض عليه من حضرة الوهب، ولنصرف العنان لذكر بعض علوم اللسان وهي كثيرة.

منها **علم اللغة**:
وهذا العلم حيث كان مجرد ألفاظ ذات معان في لسان التخاطب عند أهل كل لغة عدّ علمها عندهم غير علم، وإنما هي تلقين انطبع في طبع الحيوان الناطق الذي هو الإنسان، وذلك من عناية الحق به، فإنه من الألطاف الإلاهية حدوث الأوضاع اللغوية ليعبر بها عما في الضمير بين أفراد كل مجتمع من النوع الإنساني، فتنوعت اللغات بتنوع المجتمعات، شأن الجمع الخصوصي الذي لم يخالط غيره.

فاختلفت اللغات باختلاف الأجناس والدوَل، وبالدخيل في كل لغة حصل فيها ما حصل من ترق وغيره، فدخلت بذلك اللغات في النطق في طور آخر، ولم تبق على ما كانت عليْه إلا ما كان من حفظ أصلها في بطون الدفاتر، فعدّ الإطلاع عليها حينئذ علما مستقلا، والعارف به عالم لغوي، فإن عرف لغة أخرى زائدة على لغته عدّ صاحب لسانين، كأنَّما ذاته اشتملت على إنسانين، فتحصل له المزية على غيره من هذه الحيثية، ولقد أجاد من قال:

بقدر لغـــات المرء يعظم نفعـه	وتلك له عند الشدائـد أعوان
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعا	فكل لسان في الحقيقة إنسان

ولكن ينبغي للأديب أن يتقن أولا لغته، خصوصا المسلم، فيحق عليه إتقان لغة العرب، فبها يتوصل لمعرفة كلام الله وحديث رسوله، فالتضلع منها فضيلة كبيرة في حقه يستحق عليها الشكر[1].

[1]- كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله يدعو إلى تعلم اللغات الأجنبية، ويقول: إن المرء يتعدد بتعدد اللغات التي يتقنها، ولكن يجب أن يكون للغة العربية مكانًا خاصًا بين تلك اللغات، وذلك بخصائصها ومميزاتها التي تُبَوِّؤُها مكان الصدارة والذروة.
ويرى العلامة سكيرج أن اللغة العربية هي أبرز اللغات وأسماها فضلا وقدرا، وهي لغة القرآن الكريم، ثم يلقي اللوم على بعض المتفرنسين من شبيبة عصره، ممن طرحوا لغة الضاد من حسابهم، وتشبثوا باللغة الفرنسية، يعتزون بها ويفخرون، ويسعون وراءها لاهثين، ضاربين عرض الحائط بما لهم من تعاليم دينية، وقيم أخلاقية واجتماعية، وغيرة صادقة وحمية وطنية.

فما بال الناس لا يتسارعون لسماع ما يتلى عليهم مما يعد تذكرة للعارفين، وتبصرة للمتعلمين، كأنَّ القوم في غنى عَن العلم، مع أن الرجل لا يزال عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل، وَهب أنهم علموا ما يكفيهم من العلم فإن العالم مأمور بالاستزادة من العلم كما أُمِرَ بذلك سيد العالمين بقوله تعالى: وقل رب زدني علما[1]، فإنَّ العلم ميدانه فسيح وقد قيل:

قل للذي يدعي في العلم معرفة   علمت شيئا وغابت عنك أشياء

ولقد أفضى الولوع بالحضور في نادي المسامرات في بعض الأقطار أن يؤدوا قدرا من الدراهم في رخصة الدخول لسماع المسامرة ممن يلقيها، فيدفعوا ذلك القدر بطيب نفس، مع زيادة حرصهم على إقامة مسامرة أخرى لينتهزوا فرصة الحضور فيها بما أمكنهم، ونحن لا يحضر لنادينا من أبناء الوطن إلا بعض من أشرنا لهم بلا شيء، فضلا عن أداء شيء، فهل يا ترى هناك طريقة يتوصل منها إلى زرع حب العلم في القلوب فتتحرك النفوس لتلقي نفيس الدرر في مجالس العلوم، ويحصل الشعور للحضور لنادي المعارف بين الخصوص والعموم.

نرى هناك طريقة كان عليها عمل الأمراء بهذه الإيالة السَّعيدة من قبل، وهي التشديد على الجهلة في الوظائف بعدم تصدرهم فيها، والتضييق عليهم في أداء الواجبات الدولية المالية، وتشييد المنار لأولي العلم بمنحهم بالوظائف طبق الاستحقاق بقدر معلوماتهم، وتخفيف وطأة أداء الضرائب التي يبتلى بها الجاهل لجهله ويكرم بها العالم لعلمه.

وقد كان من عادة الأمراء أن لا يكلفوا بالأشغال الشاقة إلا الجهلة، ويحرر أهل العلم من التكليفات المخزنية من نحو الاندراج في سلك الجيش العسكري والحركة المولوية وغير ذلك، مما قضى على ذوي النفوس أن يتعلموا بقدر الإمكان في كل مكان، وكل من له ولد عزيز عليه يخاف عليه من التكليف المخزني يبادر به إلى محل التعليم حتى تداخل في ذلك ذوو الأغراض، وانجلت العزائم ببطانة الجهل التي اتصلت بالأمراء، فاختلط الحابل بالنابل، وعمَّ الجهل حين لم يبق تمييز لذوي العلم، فبردت الهمم، وتراكمت الظلم.

ولا نقصد بالعلم مجرد علم العبادات والمعاملات، بل العلم من حيث هو علم يمتاز صاحبه عن صاحب الجهل لأنه لا عمل يعتد به في سائر الأمور بالجهل وإنما المدار على العلم.

والعلم بجوهر لفظه مشتمل على العمل، لأن مادته عين ولام وميم، وهي نفس مادة العمل، فالمتعلم للعلم دائما في عمل نسبي حتى يرتقي به إلى إخراج قوته للفعل، وإلا لم يكن منتفعا بمعلوماته، وإن عمل بضد ما علم كان بمنزلة الجاهل أو أسوأ حالا منه، ومجرد العلم وحده من دون عمل به غير نافع قطعا، ولقد أحسن من قال:

---

[1]- سورة طه، الآية 114.

لو كنت منتفعـــا بعلـــــــــــمك مع مواصلة الكبائر
ما ضر أكل السم ذا علم بأن الســــم ضائـر

وأحرص الناس على العمل بالعلم دول أوربّا، فقد تقدموا في حلبات السبق بالعمل بالعلم الذي حصلوه، حتَّى أحرزوا القصبات البعيدة اللحوق بها، ولا زالوا يتنافسون في إدراك المعلومات والاستزادة من العلم بما وقفنا أمامهم فيه موقف من لا علم عنده، مع جمود القرائح منا عن طلب المعارف وتعلم ما تعلموه سرا وعلنا، وحظنا من ذلك الإعجاب من مخترعاتهم التي اخترعوها واستنباطاتهم التي استنبطوها بما أدركوه من نفائس العلوم، ونحن عن ذلك متقاعدون[1].

لا نقصد بهذا مدح الأجانب وذم المسلمين، ولكن دعانا لذلك تحريك همم أولي النجدة ليكونوا مهتمين بالحرص على اقتناء المعارف، وتعلم العلوم، بين الخصوص والعموم، فينظروا بعيون البصيرة إلى تأخر معلوماتنا، مع إظهار التبجح الصادر منا في مقام التنويه بالعصر الجديد، وإن كان لنا معلومات فهي من طور آخر، وأهل شبيبتنا العصرية لم تصل إلى الآن لما نريد.

[1]- إشارة لما كان يعرفه ذلك العصر من إعجاب مطرد بالمخترعات الحديثة التي كانت تتقاطر على مجتمعنا دون انقطاع، ولم يكن في مقدور أهل هذا المجتمع سوى التنويه بهذه المخترعات، والوقوف إكبارًا لها، ولما تقدمه من مساعٍ جليلة في خدمة الإنسان.
ولعل من أبرز هذه المخترعات وقتئذ وسائل الإتصال، من هاتف ومذياع، وما إليه من أنواع المواصلات، كالقطارات والسيارات والدراجات، وغيرها من شؤون الثورة الصناعية الكبيرة التي أضحت تعيشها الدول الغربية حينذاك.
ثم يشير العلامة سكيرج رحمه الله بعد ذلك إلى ركود العقل العربي المعاصر، وقُصُورِهِ عن مواكبة التطورات العلمية الهائلة، والمخترعات والإكتشافات التقنية الحديثة، ويعزي ذلك إلى انسياق العرب وراء الأهواء، وإهمالهم لمجال البحث العلمي، وعدم إعطائه أدنى اهتمام، أضف إلى ذلك انعدام الوعي وعدم الثقة في القدرات الموجودة، وإهمالنا للغتنا العربية، والتجاءنا نحو لغات أخرى قصد إعداد البحوث والمقالات وغيرها.

إننا لا نقنع ممن تعاطى التعلم في المدارس الحادثة في هذه الإيالة السعيدة باعتناء الدولة الفخيمة بمديد مساعدة مولانا السلطان أبي يعقوب دامت سعادته، وهم من أبناء هذا الوطن الآن آباء مستقبل الزمان بما حصلوا عليه من اللغة الفرنسوية، ومعرفة بعض العلوم العصرية، والوقوف مع ذلك في موقف الإكتفاء به، والتظاهر منهم في مظهر النّبغاء السياسيين، وهم في الطّور الأول من دور دائرة التعلم، فإن ذلك منهم بطر وخفة تفضي بهم لما لا تحمد عقباه دنيا ودينا، سيما وقد ظهر من بعضهم من التنطع في الدين والتسارع إلى الاعتراض والإنتقاد الذي يستحسنونه بالتنكيت على من تقدم في حلبات المعارف، مما يعد منهم كفرا للنعمة، ومجلبة للنقمة، التي تعم الصالح والطالح، فهم أشد ضررا على أهل وقتهم من الجاهل الذي يفعل بنفسه ما لا يفعله العدو بعدوه[1].

فاللائق بهؤلاء المتعلمين الذين عرفوا من اللغة الفرنسوية بعض الجمل التي عرفوها في لسان التخاطب وحصلوا بها من معلميهم بعض الفنون العصرية أن لا يتسارعوا إلى ما ليس من شأنهم التداخل فيه، مما يوحي به إليهم ضمائرهم، أو يلقيه إليهم بعض المتهورين الذين يعدون أنفسهم من ذوي الخبرة بالأمور، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا بما يشوشون به الأفكار من جهة الإعتقاد، ويزرعون في صدورهم التسارع للإنتقاد، بما يؤدي بهم إلى الفساد، وحصول المضرة لهم بين العباد، ويصدهم عن استغلال ثمرة تعلمهم بما يهب على غرسهم من ريح الطرد عن سبل الإنتفاع العاجل والآجل في البلاد.

ولا يخفى عنكم أيها السادة أن فائدة التعلم والتعليم لا تحصل غاياتها بمجرد تحصيل المبادئ التي لم يحصل عليها المتعلمون الآن مع قلة عددهم في المدارس، وإنما حصلوا على بعضها بالتخاطب باللسان الفرنسوي الذي تعلموه مع بعض الفنون التي إلى الآن لم تظهر عليهم نتائجها، فلا جرم إذا ساء ظن العامة والخاصة من سوء التربية التي لم تقصدها إدارة المعارف، التي ترجو ترقي الأمة ونهضتها من حضيض درك الجهل السائد، السائر مسير الرياح في النواحي المغربية، ويخشى العقلاء منّا أن يغلب في وجوه المتعلمين ظهر المحن، فتصاب يد التعليم بسهام النقض، فتنحلّ رابطة الترقي في المعلومات، ويقتصر فيه على

---

[1]- لا يخفى على أحد أن الحكومة الفرنسية كانت إبان استعمارها للمغرب قد أنفقت الملايين للتأثير علينا وعلى هويتنا وثقافتنا وحضارتنا وديننا الحنيف.

ومهما يكن من أمر فإن كثيرًا من المغاربة وقتئذ تعلموا اللغة الفرنسية طلبا للعلم، وباسم التقدم والتطور، وللدفاع عن حقوقهم وحضارتهم، ولاعتقادهم بعالمية هذه اللغة، وأنها من أشهر اللغات المسيطرة على كافة الميادين العلمية والإقتصادية والفكرية والسياسية وغيرها.

بيد أن فئة من هؤلاء الشباب المذكور بلغ بهم حال التفرنس إلى حد بعيدٍ من الإنحراف، فنبذوا لغتهم الأصلية، وتشبعوا بالعادات والأعراف الغربية، أكلا ولباسا وعملا ومعاملة، فلبسوا بذلك هوية غير هويتهم، وانصهروا في ثقافة بعيدة كل البعد عن ثقافتهم، فكانوا من ضعاف الأنفس المنبهرين بالطابع والمدِّ الغربي المتعجرف.

وقد وقفت على رسالة للعلامة سكيرج رحمه الله يصف فيها هؤلاء المتفرنسين بأنهم أبناء فرنسا غير الشرعيين في المغرب، ولا يعني هذا أنه كان يرفض تعليم هذه اللغة، بل كان يحض على تعلم مختلف اللغات واللهجات شريطة أن لا تكون على حساب اللغة الأم، حيث تصبح لغة للتخاطب في المنزل والمقهى والشارع والإدارة والأسواق والمستشفيات وغيرها.

بعض الضروريات، التي لا يرجى معها تَرَقٍّ للأمة المغربية، ويقف بها الجهل بمعالي المعارف في موقف الجاحد للنعمة الذي يستوجب سلبها منه أحب أم كره.

فهل يليق بالمتعلمين أن يتسارعوا وهم في طور التعليم بالتظاهر في مظاهر الواصلين لغاية العلم، وجلهم كما ترون لا يعرف غير الفخفخة بالتبجح باللغة الفرنسوية، منقطعا عن الدروس الغالية، بما هو مشتغل به من الخوض فيما لا يعني ولا يغني من جوع ما يتصدر له من الخدمات، التي يقوم بها أقل الناس خطة ممن ينطق بذلك اللسان. وهذا لا يعود بالمنفعة التي تعم قطرهم ويهتم بها من يرجوا في الحال والمستقبل خيرهم، ولعمري لو تعلَّم أبناء وقتنا جملة من الصَّنائع في هذه المدارس الكثيرة المنافع لكان أولى وأفضل لجلهم من تلقي الدروس الفلسفية والسياسية وغير ذلك مما هو أكبر من عقولهم التي استخفوا بها من تقدمهم، وخالفوا بها عوائد أسلافهم، استحسانا لما تظاهروا به من التسارع بتقليد بعض الأجانب في أمور ضررها أعظم من نفعها دنيا ودينا.

وإنه ليعزّ عليّ أن أنكت على شبيبتنا العصرية في ما عليْه البعض منهم من مخالفة زي أبناء وطنهم هيئةً وتحسينًا، وإنه ليضيق صدري وصدر كل متمسك بالدين، ولا ينطلق لساني خشية جرح عواطف من لا يقبل النصيحة منهم، وهم بالتعصب منهم لما تظاهروا أولى برمينا بالتَّعصب في التنكيت عليهم فيما استحسنوه من ذلك، وجعلوا عذرهم في بعض تلك الهيئات حب الإقتصاد، وذلك منهم مخالفة للعادة التي ألفها أهل قطرهم الذي قيل فيه خالف تعرف، وأجاد في ذلك من قال:

وَ للناس عـــادات وقد ألفــوا بهـــا	لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم	فهو ثقيل عندهـــم وبغيـض

وفي مثل عادة الزي والهيئة قيل في أمثال العامة "كل بشهوتك والبس بشهوة الناس"، وشهوة الناس في هذا القطر في الملبس عدم المخالفة في اللباس المعتاد.

وما ضرهم لو تعلموا العلوم العصرية وبقوا على هيئتهم الأصلية التي نشأ عليها آباؤهم، ويا تَرى هل هناك أحد منهم حصل نتيجة معرفته لما تعلمه، وكثير منهم يدعي أنه حصل على جملة من المعارف.

فأين منهم من يعرف الفلاحة ويباشرها بنفسه في هذه الإيالة لينتفع بمحصولات البلاد التي نرى الغير يستخرج منها كنوز الإستغلال.

وأين منهم من يعرف عملية بعض الصنائع ولو كانت طفيفة المدخول مثل استخراج الزجاج أو الكاغد أو الحرير، أو استخراج المعادن وغير ذلك، فغاية علم من قرأ هذا نحو أن يقول يُسْتَعْمَلُ الوقيد من كذا وَيُعْمَلُ الزجاج من كذا وغير ذلك عملية تصحبه بهم في الحقيقة مثل فن الكيمياء القديمة، فهو محصل للعلم بزعمه، وهو من أبسط الجهلاء عند العمل، ولا يخفى أن مجرد التعلم لهذه الفنون من غير عمل لا ينفع، وليس التحصيل على الوظائف بالتخريج

من المدارس هو الغاية التي يقصدها ذوو النفوس الحية، فإني بكل حرية أقول: المستخدمون في الوظائف على اختلاف طبقاتهم قوم قعدت بهم الصنائع فلم يحصلوا على منفعتها فسلكوا مسلك العجزة فتعلقوا بحبل الوظائف ولو كانت لديهم صناعة ينتفعون بها مَا جنحوا لغيرها.

فإذا اتضح بأن الشبيبة التي نرجو نفعها لا زالت في انحطاط في المعارف، فكيف يحمل ببعضهم الخوض فيما لا تحمد عقباه، ولا يليق بهم مخالفة آباءهم في عوائدهم في الزي، والتنكيث عليهم في مذاهبهم بمجرد الرأي، وهم إلى الآن لم تظهر لهم نتائج تعود عليهم أو على قطرهم بالخير العميم.

ولقد رأينا جماعة من الجزائريين والتونسيين ممن تخرجوا من المدارس المفتُوح أبوابها عندهم لازالوا ولن يزالوا في زيهم الوطني مبتهجين، فهم نعم الأسوة لأبناء وطننا العزيز، ولنذكر هنا بينة يقضي شاهد العيان بأنهم أهل الاقتداء.

فمنهم:

1. جناب رئيس التشريفات المولوية الفاضل المحترم، حبيب الأمة، السيد الحاج عبد القادر بن غبريط التلمساني[1]
2. وأستاذ أنجال الحضرة الشريفة الفقيه الأجل السيد محمد المعمري الجزائري[2]
3. والترجمان المبجل السيد محمد عبروس الجزائري
4. والترجمان بقسم المحكمة العليا السيد عبد القادر بن شهيدة

[1]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذا الكتاب
[2]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذا الكتاب

5. والترجمان بالقسم العدلي الفقيه السيد أحمد التجاني[1]
6. والترجمان الخاص بسيادة الصدر الأعظم السيد كدودو التونسي وأخوه
7. ومراقب الأحباس بمراكش الأستاذ السيد بومدين بن زيان التلمساني
8. ومراقب الأحباس بالجديدة الشريف السيد عمر الخطيب الجزائري[2]
9. ومحرر السعادة الغراء، نابه الذكر الجميل، السيد علي الطرابلسي

فهؤلاء الأفاضل تخرجوا من تلك المدارس، وكل واحد منهم اختص بمعارف سامية المدرك، ولم ينالوا المراتب التي افتخرت بهم بمخالفتهم العوائد، فلا ترى منهم حفظهم الله من يحدد الشارب ويحلق شعر لحيته، ولا من يلبس لباس الأجانب حتى في العمامة والبلغة ونحو ذلك، مما يدل على رجاحة عقلهم وتنوير بصيرتهم، لينظر إليهم القوم بعين الرضى، ولا يستخف عقلهم ودينهم أحد، فلتنظر إليهم الشبيبة العصرية ولتقتدي بهم.

[1]- أحمد التجاني الماضوي، فقيه كاتب مدرس مترجم، من أعلام بلاد الجزائر، أبصر نور الحياة بقرية عين ماضي سنة 1291 هـ-1874م، وبها نشأ وتربى وتعلم، قبل أن ينتقل للعاصمة (الجزائر) حيث اندرج بها ضمن تلامذة المدرسة الثعالبية. وقد أنهى هناك دراسته الثانوية، وكان له حينها نشاط مكثف ضمن صفوف الحركة الوطنية بالجزائر، مما لفت إليه أنظار سلطات الإحتلال الغاشم، فأقدم على إبعاده إلى مسقط رأسه (عين ماضي) حيث ضربت عليه بها الإقامة الجبرية مدة طويلة.
أما مقدمه للمغرب فيعود سببه للوزير المغربي محمد الجباص، الذي زار الجزائر عام 1333هـ-1915م بهدف البحث عن مترجمين أكفاء يجيدون الحديث باللغتين العربية والفرنسية، وذلك قصد العمل بسلك الإدارة المغربية إذ ذاك، فاقترح عليه الفرنسيون مجموعة من صفوة المترجمين، من ضمنهم صاحبنا (أحمد التجاني) الذي لم تقترحه سلطات الإحتلال بناء على كفاءته أو مقدرته، بل بهدف نفيه عن الجزائر تمامًا.
وبحلوله بالمغرب عمل مترجمنا ضمن موظفي إدارة الشؤون الشريفة برباط الفتح، فتعرف هناك بالسلطان المولى يوسف، الذي لمس فيه ما لمسه من علم واطلاع، وفصاحة لسان، وكفاءة عالية في مجال الترجمة، فهمس له مرة في إحدى اجتماعاته به قائلا: أنت منَّا وإلينا يا فقيه، كما عينه مؤدبا للأمراء أبناءه (المولى إدريس، والمولى الحسن، وجلالة الملك محمد الخامس).
ولدى وفاة السلطان المولى يوسف عام 1927م، أقدمت السلطات الإستعمارية على إبعاد مترجمنا عن عمله بالقصر الملكي العامر، لا سيما بعد علمها بعضويته ضمن جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، مع اتصالاته الوثيقة ببعض أفذاذ الحركة الوطنية بالبلد المذكور، فنفوه أولا لمدينة مراكش، ثم لآسفي فالدار البيضاء، ولم يعد لعمله بإدارة الشؤون الشريفة إلا قبيل إحالته على التقاعد ببضعة أشهر.
ولدى نشوب الأزمة بين السلطان محمد الخامس والإقامة العامة الفرنسية عام 1953م كان صاحبنا حينذاك خير مساعد ومعين لجلالة الملك المذكور، الذي كان يحترمه ويكبر فيه روحه الوطنية المخلصة، وهي المبادئ التي ظل وفيا لها إلى حين استقلال المغرب عام 1375هـ-1955م، فعينه الملك المذكور على رأس وفد الحجيج في السنة نفسها، كما استصحبه معه خلال زيارات عديدة له لدول صديقة، كمدغشقر والعراق والأردن ولبنان والسعودية وما إلى ذلك من دول أخرى.
توفي ليلة المولد النبوي الشريف 11 ربيع الأول عام 1401 هـ- 18 يناير 1981م.
[2]- هو والد الدكتور عبد الكريم الخطيب، أحد أبرز الوطنيين وقادات جيش التحرير بالمغرب.

ولنكف عنان القلم عن الخوض في هذا المضمار، الذي يثير غبار الحقد على المتكلم بمثل ما تكلمت به، ولنرجع إلى ما ينفع في سبيل التعلم والتعليم، فإن هاهنا طريقة سهلة المرور، للحصول على جملة من الفنون في مدة قريبة لطالبها.

ولا شك أن الطالب تتشوف نفسه إلى قراءتها، ويهتم كل الاهتمام بما يوصله لتحصيل العلم الذي يخوض فيه بتلقي الدروس في المتون المؤلفة في الفن المطلوب لديه، ويمنعه من متمناه ما يصادفه من العقبات أمام طلبه من صُعوبة المدرك، مما وضع على تلك المتون من كثرة الشروح والحواشي التي صيرت المختصرات في حيز المطولات بلا طائل تحت حل ألفاظ المتن وإيراد الإيرادات والأجوبة المنوطة بذلك من جهة المعنى ومن جهة المبنى، مع كثرة الاستطرادات التي تستغرق زمنا طويلا في قراءة المتن الواحد في الفن الذي يخوض فيه كما عليْه التعليم القديم، ولا زال الأمر عليْه عندنا زيادة على ما ولع به الطلبة من الاشتغال بفنون متعددة من قبل تحصيل قواعد فَنٍّ منها، فتطول المسافة عليه ولا يصل إلى غاية مقصوده.

ولقد قرر العلامة ابن خلدون في مقدمته وغيره من ذوي المعرفة بطرق التعليم أن من آفة العلم الخوض في جملة كثيرة من أنواعه قبل تحصيل الأهم فَالأهم منها، سيما لمن يريد التبحر في الفنون ويكون عالما للناس أو عالما لنفسه، وقد قال ابن قتيبة: من أراد أن يكون عالما لنفسه فالقليل من العلم يكفيه، ومن أراد أن يكون عالما للناس، فحوائج الناس كثيرة.

وقد سلك الناس قديما وحديثا في التعليم طرقا متعددة، واهتدى الأجانب إلى أسهل الطرق وأنفعها بملازمة الفن الواحد في حق النابغ فيه حتَّى يدرك فيه المدرك الذي يقف به على غوامض أسْراره، ويقدر على الاستنباط من حقائقه ما يعدّ من عجائب العلوم التي تحير الفنون اختراعا واكتشافا، مما تركنا واقفين أمام كل اختراع من ذلك في موقف الإعجاب[1].

والذي ظهر لي في طريق تحسين التعليم والتعلم لمن يريد الاستطلاع على عدة فنون في الأمد القريب أن يقرأ المتون مجردة عن الشروح والتعليقات والحواشي المختصرة والمطولة، وإنما يهتم بتحصيل معنى المتن، فإنه يسهل عليْه التضلع من ينبوع الفنون التي يخوض فيها، ولو كانت من أصعب المختصرات ممن يقتصر من المعلمين على تبيين المعنى من جوهر المبنى، وبهذا يتسنّى للطالب المشتغل بقراءة مختصر الشيخ خليل في الفقه مثلا أن يحيط علما بمضمنه منطوقا ومفهوما في مدة قريبة، ولا شك أنه إذا حصل على مضمن المتن فإنه تحصل له ملكة تحصيل ما اشتملت عليه الشروح والحواشي وغيرها، فالإقتصار على حل ألفاظ المتون في التعليم مفيد جدا في تحصيل العلوم وتنوير الفهوم.

---

[1]- يدعو العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله في هذه الفقرة إلى اتباع نظام التخصص وانتهاجه ضمن الحلول القاضية بإصلاح مسار التعليم في المغرب، ولم يكن مجال التخصص معروفًا وقتئذ بشكله الحالي، ويرى العلامة المذكور أن التخصص الواحد كان من أهم العوامل التي ساعدت على نشوء الطفرة الصناعية والثقافية بالدول الغربية، كما يرى أنه أحد أكبر العوامل الكفيلة بالنهوض بمستوانا التعليمي، اعتبارا لكونه يعطي الفرصة للطالب في تنويع تركيزه وتحصيله ضمن فروع تخصصه، وهو ما يتيح له المزيد من المهارات، ويمنحه قوة الملاحظة، والقدرة على الربط والتحليل، والرفع من مستوى بلاغته، سواء كانت شفاهية أو كتابية.

وكذلك التعليم بالمثال والتشخيص وعمل اليد أقرب للتحصيل من التبيين، فليس التعريف بالحدود والرسوم كالوقوف على الأشخاص المعرف بها، مثال ذلك في الشاهد تعريف الربع المجيب وتعريف القطب والقوس والجيب وغير ذلك، فإنه يصعب على المبتدئ معرفتها بدون حضور الآلة نفسها، ويسهل عليه كل السهولة معرفتها بالتوقيف عليها، وهكذا تعريب الاسطرلاب وشبكته ونحو ذلك مما هو من مبادي الفن الضرورية، فلا يحتاج بالوقوف عليها إلى معاناة استحضار هيئتها، وكذلك جميع الفنون اليدوية، فهي بالعمل أسهل تحصيلا وأحوَط غلطا من تحصيل قواعد العلم، مثال ذلك علم التشريح فتعليمه بالعملية المشخصة أولى من تعلم العلم الفني مجردا عن العمل وهكذا، وبهذه المثابة كانت المدارس التي تعلم التلامذة بالتشخيص أعظم نفعا من المدارس التي تعلم القواعد فقط من غير تشخيص[1].

وبكل أسف على من لم يكن يعرف النطق بلغة التعليم المدرسي كيف ضاع وقته من غير تحصيله النّافع له بالفنون المتداولة فيها من نحو الكيميا الجديدة والطب والتشريح وغير ذلك من الفنون الجميلة والصنائع الجليلة، كفن الفلاحة وفن التجارة وغيرها، مع أنها علوم اصطلاحية يتوصل إلى إدراكها في هذه المدارس بالخوض فيها بالتعلم للعموم بتعليم من يحسن اللغة العربية لكونها مدونة في تأليف المطلعين عليها ممن عرفوها من اللغات الأجنبية.

وما أحوجنا معشر المغاربة إلى معلمين ناطقين باللغة العربية، عارفين بهذه الفنون، سيما الفنون الصناعية التي هي أنفع لأبناء وطننا من غيرها، فيقومون بيننا بإلقاء الدروس فيها وتعليمها للعموم الذين لا إلمام لهم باللغة الفرنسوية، فإن كثيرا منا يتلهف على من يعلمه هذه الفنون بلغته، حيث فاته إبّان حفظ غير لغته التي نشأ عليها[2].

---

[1]- يدعو العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله إلى إدخال مجال التشخيص في الدراسة على جميع أصعدتها، نظرًا لكونه الأداة الفعالة في تلقين الدروس وتبسيط المقررات وتوضيح المفاهيم، مع ما لديه من وسائل متعددة، كفيلة بتجاوز شتى الصعوبات التي قد تواجه الطالب في مساره، ولا يتأتى ذلك بطبيعة الحال إلا بواسطة البرامج التدريبية والتطبيقية المباشرة.

[2]- كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله ينادي بضرورة التعريب، وإحلال لغة الضاد مكان اللغة الفرنسية التي امتدت وقتئذ إلى عمق الإدارة المغربية، وهيمنت على وسائل التعليم والمقررات والمناهج التعليمية، لا سيما بعد ظهور نخبة من الشباب المغاربة المشبعين بالثقافة الغربية، ممن كانوا ينظرون إلى اللغة الفرنسية كأداة رئيسية للإنفتاح على دول القارة الأوروبية والتخاطب معها.
والمعروف أن لهذه المسألة بعدًا آخر يتمثل في الاستعمار الفرنسي الغاشم لبلاد المغرب ما بين عامي 1912م-1956م، حيث لم يكتفي هذا الاستعمار باحتلال الأرض ونهب خيراتها والقضاء على سيادتها الوطنية، بل امتد إلى ما هو أبعد من ذلك، ليخلق بلبلة داخل الجوانب الثقافية والاجتماعية لهذا الوطن، وذلك لإحداث انشطار على كافة مستويات بنية هذا المجتمع، غير آبهٍ بشيءٍ من تقاليده وأعرافه وطقوسه، مما تولد عنه تقطيع للبنية التحتية ضمن محاولة لإلحاق هذا المجتمع داخل نظام فرنسي كبير، فأصبح الشارع المغربي وقتئذ مقسم ما بين تعليم عصري وآخر تقليدي، وقضاء أجنبي وآخر شرعي، واقتصاد حديث وآخر قديم.

ولو اهتدت أعضاء المجالس البلدية في هذه الإيالة لاقترحوا توظيف معلمين بهذا الوصف على إدارة المعارف ومديرها الفاضل، ولو بإلقاء دروس ليلية باللغة العربية في هذه الفنون، ونحن نعرض هذه الفكرة على سيادة مندوب المعارف والعلوم، الحاضر معنا، ليكون خير واسطة في استعطاف الحضرة الشريفة أدام الله سعادتها للمساعدة على هذا الاقتراح في تعليم من لا يحسن اللغة الفرنسوية، وفي ذلك وسيلة للنجاح وامتداد رواق الإصلاح[1].

أيّها السَّادة:

إن المقصود من المسامرات هو استنهاض الهمم وإبداء المسامر لفكره بما يعرضه على الحاضرين في ناديه من معلوماته الجيدة والزائفة، فهو يقف في موقف الرضى في عين قوم، وفي عين السخط عند آخرين، فيجد بينهم مستحسنا بالحقيقة أو مداهنًا يتراءى له بالاستحسان لمقاله، وَ في ظهر الغيب يقرضه بمقراض الغيبة بين قرنائه، فلا يجني المسامر بينهم من ثمار مسامرته إلا نكدا، فيرى من الحضور في إلقاء أفكاره مَا يلزمه التأخّر في هذا المضمار الذي قصد به التنافس في إحراز الفضيلة بما يقع التنبيه عليْه مما ينبغي التسارع إلى اقتنائه وما ينبغي التباعد عنه والإحتراز منه من كل مَا يشين في الدنيا وفي الدين.

وليس المقصود من المسامرة تحسين القبيح أو تقبيح الحسن، أو مدح زيد أو ذم خالد، فإن ذلك من قبيل المداهنة المذمومة، حيث إن ذلك من الغش المفْضوح صاحبه، سيما إذا كان الحاضرون مثلكم ممن يعرفون الوقت وما يستوجب به الشخص الرضى ومَا به يستوجب المقت، فلا بدع إذا نظر إلى المسامر بعيون مكحولة بإثمد الرضى أو توتية السخط.

وللبغض عَين لا تزال عبوسة   وعين الرضى مكحولة بالتبسُّم

وقيل:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المساويا

وليس ذلك من الإنصاف الذي ينشط الحاضر والباد، سيما المسامر في ذلك الناد، وإنما اللائق أن يتلقى من المسامر مقاله، الذي أبدى به أفكاره، وبعد ذلك يتعرض مسامر آخر لإبداء أفكاره أيضا في تأييد ما قاله الأوّل، أو ينتقد عليه بلهجة لا تمس بالعاطفة القلبية في القبول والرد، وكل كلام فيه المردود والمقبول إلا كلام الرسول عليه السلام.

---

[1]ـ كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله من أنصار تعريب العلوم، وكان كثيرًا ما يؤكد على أنها مسألة حتمية لا غنى عنها، وذلك إذا كنَّا نأمل مواكبة العصر ومستجداته، والحلول في مصاف الدول المتقدمة علميا وثقافيا وتكنولوجيا، وقد أشار إلى هذا الموضوع في كثير من كتبه، وتناوله باهتمام واسع، وذكر أن علماء الحضارة الإسلامية كانوا قد استوعبوا هذه الحقيقة عندما أقدموا على ترجمة كتب ومعارف الإغريق إلى العربية، واستوعبها أيضا علماء الغرب حينما ترجموا علوم الحضارة الإسلامية إلى لغاتهم ضمن عصر النهضة الأوروبية الحديثة.
وبناء عليه فتعريب العلوم عنده أضحى من آكد الضروريات، بغية النهوض من الكبوة، والسعي إلى اللحاق بركب الحضارة التي ينشدها مجتمعنا الحديث.

ولا يعزب عنكم أن إبداء أفكار المسامرين مما يوحي به إليهم ضميرهم يعرض على محك النقد، وما كانت فيه مصلحة للعموم إلا ويعين على إظهارها بالوساطة في تنفيذها من المخزن الشريف أهل الحل والعقد من الحاضرين، لسماع إلقائها مع الذين بَلَغَتْهُمْ، ولا لوم على المسامر في إبداء فكره مما يمس بالسياسة إلا إذا كان متحاملا بلهجة حادة في تهييج الأفكار ضد المخزن والحكومة، متعمدًا لذلك بما هو خارج عَن النهج الأدبي، القاضي بالملام بما فاه به من سقطات الكلام[1].

ولم نر من أبناء وطننا مسامرا فتح باب الانتقاد على المسامرين أفكارَهم، ولا أبدى استحسانا بتأييد فكرة تأتي بخير عاجل أو آجل جاء بها المسامر، وهو في شك من أمره في استحسانها في نظر العموم أو استقباحها في نظر غير ذوي الأغراض، وغير من يتسارع في بداية الأمر بالاعتراض، فجاءت المسامرات التي تكررت من قبل معَ جميل موضوعها وسحر بيانها كل واحدة منها مثل تأليف خصوصي في موضوع خاص، ولم يقع من السامعين لتلك المسامرات اهتمام ولا اهتبال بها، ولا تكرر منهم طلب من إدارة المعارف في اقتراح من واحد منهم عليها أن يسامر فلانا أو فلانا في موضوع كذا، ويشكروا الإدارة والمدير والمندوب على إحياء نادي المسامرة الذي فَتحت أبوابَه لمن يريد الحضور فيه للاستماع، وتعرف إدارة المعارف بذلك من حال الناس أن ذلك مفيد لهم، فتزيد في توسعة نطاق المعارف لنفع العموم.

وما دَام الناس متكاسلين عن حضور المسامرات أو حضورها من غير مبالات بمن سعى في إلقائها، بقطع النظر عن ملقيها الذي لا يلقى شكرا عليها لا منهم ولا من غيرهم، فإن الهمم تزيد برودة على برودتها، وتكون فائدة المسامرات في ناديها الرفيع لغير أهل الوطن الذين نرى تكررها في الشهر مرارا في موضوعات مختلفة، ونحن كالمتفرجين إن حضرنا مرة لسماعها وليس لنا منها إلا مجرد النظر إلى الجمع الجميل، أو إشارة لمرسوم هناك جميل، لكوننا لا نعرف اللغة التي يلقي المسامر فيها مسامرته، وليس معنا من أبناء وطننا من يسمح لنا بترجمة ما يلقيه ذلك المسامر بتلك اللغة في موضوعه، الذي نرى ابتهاج الحاضرين لسماع خطابه، ونشاهد تعدد تصفيق الاستحسان منهم لما يلقيه.

أمَّا مسامراتنا العربية فلا يحضر لسماعها إلا أقل القليل ممن نهض بهم حب الخير وحب أهله ونحو ذلك من المقاصد، ولا يأتي غيرهم للنادي لعدم مبالاته بما هو فيه، وما هو عليه

---

[1]- التحفيز على طلب العلم، والدعوة إلى التكافل والتراحم والإخاء، ونبذ العنف ومحاربة الجهل والخرافات، وحث الناس على العمل والإبداع، والتحلي بالفضيلة والقيم والأخلاق الفاضلة، تلك هي إذن المواضيع التي كان يخوض فيها العلامة سكيرج أولا بأوَّلٍ خلال مسامراته، وقد كانت لهجته المتحمسة وتعابيره المختارة وتشابيهه الثرية تضفي على تلك المواضيع من الرونق والكثافة ما كان يثير إعجاب المستمعين الذين لا يحصى عددهم.
كما كان يشير دومًا وأبدًا إلى الأخطار المحدقة بالمجتمع المغربي المسلم، رغم ما له من ماض مجيد، فيستعرض في سياق حديثه بعض الأحداث التاريخية الهامة التي عرفها بلدنا الكريم، حيث يستخلص منها العبر، مؤكدًا على الأخطاء المتعمدة أو غير المتعمدة التي غيرت مجراها.

حال وقته، المؤدي إلى مقته، لا فرق بينهم وبين المتخلف عن الحضور تكبّرا بنفسه على المسامر، أو بإظهار ورع كلي في الحضور في نادي المسامرات الذي هو من قبيل الحضور في مجالس الذكر والتذكير، ومجالس العلم عند البصير الخبير.

ولا ينبغي له أن يفني عمره فيها من غير أن يقتبس من نور علوم أخرى مما ينفع دنيا ودينا، لأنها مع علوم الأدب المنوطة بها آلة يقصد بها العملية الكبرى في غيرها من الاطلاع على العلوم النافعة والعمل بمقتضاها[1].

وإنما قدمنا هذا الكلام على اللغة قبل غيرها لأنها مقدمة بالطبع، وغيرها متوقف عليها، وقد يحصل للمطلع عليها ملكة في النطق، بحيث يمكنه أن يتكلم بألفاظ فصحى وألفاظ غريبة بحسب ما يفضي به عليه المقام من توضيح وإبهام، كقول سيدنا علي رضي الله عنه يخاطب شخصا: اجعل حضريتك إلى قهيلي حتى نغي لغية إلا وعيتها حماطة جلجلانك، فهذا كلام عربي معناه: اجعل قلبك إلى ناحيتي حتى لا أتكلم بكلمة إلا حفظتها داخل سرك.

ويمكن للمطلع عليها أن يستر لكنته وغيرها بجعل لفظ يقدر على النطق به بدلا عن لفظ يكون فيه ألثغ مثلا، فقد حكي عن واصل وكان ألثغ، وقلما تفطن له أحد في النطق بالراء لهجرانه لها، حيث لا يساعده نطقه عليها، فعمد أحد الكتاب إلى إنشاء مكتوب أمر مخزني، ودفعه إليه ليقرأه على الجماعة الحاضرة قاصدا بذلك إظهار كونه ألثغ ونصها: أمر أمير الأمراء أن يحفر بئر في الصحراء، فنظر إليها قبل القراءة وعرف المقصود فجال في اللغة وأتى بما يرادف كل لفظة وقال: قضى حاكم الحكام أن ينحث جُب في البادية، فزاده ذلك اعتبارا عند المطلعين على ذلك، وعلى ذكر الألثغ تذكرت قولي فيه:

وألثغ جــيء بــه	يفعل ما لا ينبغي
قلت له أنت بري	قال نعم أنا بغــي

وَ الحاصل أن التضلع من اللغة مفيد جدا، ومن جملة الفنون المنوطة بها علم النحو بمعنى فن الإعراب، وهو من الآلات التي ينبغي التحصيل عليها، لأنه يوصل إلى معرفة كلام العرب الذي أرسل النبي عليه بلسانهم، فلم يكن عليه السلام يلحن في حديثه، ومن لحن فيه يعد كاذبا

---

[1]- أدرك العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله مثل الكثيرين من زملائه أهمية المسامرات العلمية ودورها في سبيل العمل المشترك الرامي إلى النهوض بالبلاد ثقافيا ومعنويا، ولهذا كان يدعو الناس لحضور مثل هذه المسامرات، ويحضهم على اعتيادها ومواكبة فعالياتها أينما عُقِدَتْ، إذ من خلالها يمكن تسليط الضوء على كثير من القضايا الوطنية والإجتماعية والعلمية وغيرها.
وكانت في مقدمة مشاغله رحمه الله قضية التعليم، وهي قضية ذات أهمية قصوى، لا سيما إذا علمنا أن تسعة أعشار مواطِني المغرب وقتئذ كانوا يتخبطون في ظلمات الجهل، كما كان يحث على النهوض ببعض الصناعات التقليدية بفضل التعليم التقني الملائم والتشجيعات الحكومية، ولا يتأتى ذلك في نظره إلا بتوسيع نطاق التعليم المهني والزراعي. وجعله في متناول الطبقة الشغيلة، أضف إلى ذلك مجال القضاء والعدالة والإنصاف، وغيرها من المجالات التي كانت تَهُمُّ المجتمع المغربي وقتئذ وتعتبر من أوكد الحاجات.

عليه، وقد قال عليه السلام من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، والجاهل بالإعراب إذا لحن في كلامه، فهو كالمتعمد، فلذلك ينبغي تعلم النحو، وبالأخص من يقرأ الحديث الشريف. ومن نظمي:

النحو أحسن ما به   يتحمل النطق الفصيحْ
إن الكــلام بدونــــه   من دون شك شبْهُ ريحْ

ومن ذلك علم التصريف، فإنه تحصل به الملكة في إفراغ اللفظ في قوالب تناسب المعنى المطلوب، لأنه علم تعرف به أحكام أبنية الألفاظ المتداولة في المعاني المختلفة، من غير خروج عن الكلام العربي، وهو علم نافع جدا، وهو من تتمة علم اللغة، فلذلك يهتم به.